

المقطف

الجزء الأول من السنة العشرين

١ يناير (كانون الثاني) سنة ١٨٩٦ الموافق ١٦ رجب سنة ١٣١٣

الدكتور كريستوس فان ديك

اخلاقه وصالته

ذكرنا في الجزء الماضي سيرة استاذنا الدكتور فان ديك من حين نشأ الى ان استعفى من المدرسة الكاثوليكية السورية الاميركية. وقد يُظنُّ لأول وهلة ان عزيمته نبت حينئذٍ عن التأليف والتصنيف والاشغال العميَّة الكثيرة. ولكن جاء الامر على خلاف ذلك فزال حالاً ما تولاهُ من الانتباض وبقي حتى مرضه الاخير من ابش خلق الله وجهاً والطفهم معشراً واكثرهم انساً يقيم الاشغال بهمة النتيان لان البشاشة والهمة خلقان فطريان فيه فلم تغيرهما غير الزمان. وابتاع نظارة كبيرة وآلات لرصد الكواكب والاحداث الجوية وظلَّ يراقب ويرصد كما طلب الراحة من عناء الاشغال لانه كان يجد في درس الطبيعة لذة لا توصف ومساعدة على ذلك منزله في رأس بيروت من حيث موقعه الطبيعي واتساع اراضيهِ. وزرنا ديار الشام في تلك الفترة فلم يكده يستمرُّ بنا الجلوس عنده حتى قال هلموا انظروا ما استحضرت من الآلات وما ريت من النباتات وجمال بنا حول منزله ووجهه يتدفق نوراً وقلبه جبوراً ولم تقعه الشيوخوخة عن التأليف والتصنيف والترجمة والتلخيص فالف كتب النقش في الحجر في ثمانية اجزاء حاذياً فيها حذو جماعة من كبار العلماء الذين ألفوا كتب البيادىء باللغة الانكليزية فخرى مجراهم وزاد عليهم ما نتمُّ به الفائدة. فاقبلت المدارس على هذه الكتب اي اقبال وافرت نظارة المعارف المصرية على تدريسها في مدارسها. وطبع كتابه في محاسن القبة الزرقاء فجاء جامعاً بين الحقائق العميَّة والاخبار الفكاهيَّة. ولدينا الآن رواية دينيَّة بديمة ترجمها حديثاً عن اللغة الانكليزية ثم وافته المنيَّة قبل طبعا وكان قد طلب اليها ان تنوَّى طبعا فأرسلت اليها بعد وفاته وستطبع وتشر قريباً

وغني عن البيان ان رجلاً مثله قضى العمر في خدمة العلم والعالم يكون علماً منظوراً من الاقارب والاباعد وغرضاً مقصوداً لرسائل القوم ومسائلهم فاهيك عن مكاتبات تلامذته المنتشرين في اقطار المشرق والمغرب وعن انه لم يكن يستنكف من اجابة كل من يكتبه او يسائله ولذلك بقي حتى مرضه الاخير يشتغل ما لا يشتغله الفاتقون جداً واجتهاداً المتازون حمّة واقداماً

والانسان اذا عكف على الدرس واجتهد في التعميل اتقن علماً من العلوم واشتهر فيه ولو لم تكن قوى عقله فائقة. ولكنه لا يستطيع اتقان علوم كثيرة الا اذا فاق في مضاء ذهنه وذكاؤه ذكرو ووافر اجتهاده ومنحه الباري صحة جيدة وعمراً طويلاً. ولذلك قل الذين اشتهروا في الارض بعلوم كثيرة والعائشون من هؤلاء اليوم افراد معدودون وقد كان استاذنا الدكتور فان ديك واحداً منهم كما شهدت له العلوم التي حواها صدره والتأليف التي انبثقت منها والشهرة التي حازها بين علماء الارض. فانه درس اللغريات ففاق فيها وحفظ عشرات لغات خماً قديمة وخماً حديثة فانتقها واشتهرت اشغاله فيها وحبينا شاهداً على ذلك ترجمته للتوراة والانجيل إلى العربية واشتهار الترجمة بين علماء اللغات في سائر الاقطار كما سبظهر في اثناء الكلام. ودرس الرياضيات فانتقها حتى صار رياضياً معدوداً وألف فيها مؤلفات مشهورة للتدريس في المدارس الكلية. ولقد طالعنا مؤلفات كثيرة للانفرنج على شاكلتها فلم نجد اعم منها فائدة ولا اوفى بالعرض. ودرس علم الهيئة فانتقها علماً وعملاً وألف فيه ثلثة مؤلفات وضم اليه علم الظواهر الجوية فصار كبار مراصد العالم تعتمد على ارساده وتطلب معاضدته في تقرير الحقائق وكشف الشرائع الطبيعية. واشتغل بالكيمياء فانتقها علماً وعملاً. وفي الطب ففاق في مؤلفاته وعلمه وعمله حتى صار اكثر من ثلاثة ارباع الاطباء السوربيين من تلامذته المؤسسين على تعليمه المستفيدين من تصانيفه

هَذَا ويندر ان يفوق الانسان الواحد في جودة الادراك والذاكرة معاً كما فاق استاذنا بدليل اشتغاله باسمي العلوم وحفظه للغات الكثيرة. ولا ينكر احد ممن عرفه وعاشره انه من الافراد المعدودين الذين فاقوا في قوة الذكر فانه قلما نسي اسم انسان سمع اسمه مرة فيناديه باسمه ولو بعد السنين الكثيرة. وكان يذكر مئات من الايات في كثير من اللغات كأنه قد حفظها امس وهو قد حفظها في حديثه. ولم يجادته انسان الا تعجب مما يشهد به من الايات والحكم والامثال والنوادر والشواهد حتى كأن صدره يجر حوى المعارف كلها. واغرب من ذلك انك لا تطلب منه شاهداً على مسألة من المسائل الا هداك حالاً إلى

الكتاب والوجه والسطر الذي فيه شاهدك كأنه قرأه تلك الساعة او حفظ لفظه غيباً وهو لم يقرأه إلا مرة واحدة منذ سنين عديدة حتى ان كثيرين كانوا يخرجون من حضرته وهم يظنون انه قرأ ما ذكروه فيه فيل اجتماعهم به . وهذا يدهش كل معارفه ويخضع عقولهم لعقله

وكان مع ذلك كله على غاية الاتضاع والوداعة لا يختر رأياً ولوجاء عن فني حديث السن ولا يأبى تحادثة الصغار وملاطفة البسطاء . ومعارفه يضربون به المثل في الاخلاص وحفظ الوداد فهو من الذين لا ينسون معروفاً ولا يستعظمون على صديقهم بيذولاً . وحبته للسكينة مشهور لدى الخاص والعام فقلات مكينات في سورية نوال فضله . واتعابه في تعليم الثبان وانشاء المدارس وتأسيس الجمعيات والوعظ ومعالجة المرضى وتخفيف ويلات البائسين تشغل اوقات رجال كثيرين لوقست عليهم . وهو من الافراد القليلين الذين لا يجابون بوجه انسان والذين يقدرون الناس قدرهم فينظرون إلى ما هم عليه من العقل والادب لا الثروة والجاه . فظالما عهدناه يعرض عن مواجهة رجل كثرت مظالمه ولوعلا مقامه ويرحب بفقير استقامت سيرته وحث سريرته . وهو من الافراد القليلين الذين يتصمون بالحق ويراعون الذمة ويعتزلون عما يوجب المذمة . ومما يدل على واسع شهرته انه لما جاء امبراطور برازيل الى بلاد الشام سنة ١٨٧٧ ودخل مرصد المدرسة الكلية قال له من فورد لا حاجة ان يعرفني بك احد ايها الدكتور الفاضل فانك معروف عندني واطالما سمعت عن واسع علمك وقرط اجتهادك وددت لوقيض لي مشاهدتك حتى اسعدني الحظ برويتك كما رأيت علماء الارض رفقاءك . ولما ودعه قال هل لي ان احمل تصانيفك معي لتتم بها زينة مكتبتي . فقدسها استاذنا لجلالته فانصرف بيثي جميلاً

فهذه صورة اوضحنا بها للقارىء مثال هذا الرجل العظيم من حيث ارتقاؤه بجده وعلو همته حتى صار اعظم نعمته انعم بها على الشرق بعد ان كان في صوته لا يملك ما يتنازع به كتاباً . ولواردنا ان نورد سيرته من اوجه اخرى لاستغرق الكلام معنا فصلاً اطول مما يحصله هذا المقام . فالذين عرفوه عن بعد انما رأوا عظمته واقتداره على الاعمال وهذا سبب ما له في نفوسهم من الهابة والوقار ولكن الذين عرفوه عن قرب رأوا فيه مع العظمة مناقب من اشرف ما نتجمل به الفطرة البشرية وهذا سبب محبة معاشريه له واشتياق تلامذته الى القرب منه وتسايق الناس الى ابداء ثنائهم عليه واعترافهم بفضلهم عليهم وتارعهم الى تأييده ورتائه بعد موته . فاذا تأملناه من حيث معاملته للناس لم نجد معاملة له الا كان

من أحب الناس إليه وأولم اعترافاً باستقامته وحن طويته . والعارف باخلاق البشر يعلم ان ذلك لا يحصل عليه الا بعد ان يتحقق الناس انه يؤثر مصلحة غيره على مصلحته .
 واذا اعتبرناه من حيث انصافه وجدناه مثلاً في الاعتراف بما له وما عليه بل عندنا من الشواهد ما لا يحصى على تليله نفسه في انصاف غيره حذراً من ان يكون حب النفس قد حاد به عن جادة الانصاف . وحسبنا ان نذكر منها شاهداً واحداً وهو اعترافه بفضل زميله المرحوم عالي سمث في ترجمة التوراة . فالظاهر ان موت عالي سمث قبل ان يتم من الترجمة شيئاً كثيراً حول اذهان العموم عن ذكره حتى خيفت ان ينسى فضله . وذلك ساء الدكتور فان ديك اكثر مما ساء غيره فصار احرص الناس على ذكر اسم عالي سمث قبل اسمه . ولا نتذكر انا معناه مرة يذكر ترجمة التوراة الا قدم فيها اسم عالي سمث بقوله " لما ابدأ فيها فلان واتممتها انا " . ولما اتى امبراطور البرازيل اى سوريتة كما تقدم وقال له على مسمع منا " اني سمعت بترجمتك الشهيرة للتوراة " فاطمته الدكتور فان ديك قائلاً " لعله لم يبلغ جلالكم اني انا لست مترجمها الوحيد فقد شرع في ذلك المرحوم عالي سمث واتممت انا ما بقي بعد موته "

واذا نظرنا إليه من حيث اخلاص الطوية وصفاء النية وحب حرية الضمير وجدناه مثلاً لها بين عارفيه . بل لم نسمع احداً خالي الغرض يميء الا بالمدح في معرض التمدح مثل قوله انه لسلامة طويته وصفاء نيته يغيبه اهل الدهاء
 وكان بعد الناس عن ذكر شيء تسم منه رائحة المدح لنفسه فقد قضينا معه عشر سنوات في عشرة محتمرة فلم نسمع منه ذكر اذى عمل من اعماله في معرض الاستحسان . وحاولنا المرات الكثيرة ان نستشف منه القليل عن سيرة حياته فكان يحول مسائلنا الى غير المقصود ثم يستطرد منها الى ما يتخلص به من الجواب ويسد علينا باب السؤال . ولذلك عايننا المشقات حتى وقفنا على طرف من سيرته نقلاً عن اولاده واقاربه . ولا تضاعف كان يجنب كل معرض يمدحه الناس فيه ويرتبك امام من يقابله بالمدح فاما ان يصرفه عن مدحه بجواب حسن او يتخلص منه بوجه آخر . اتاه جماعة من علماء دمشق يوماً وفي صدرهم شيخ كبير بعد بينهم من النطاحل فمدحه واضرب ثم قال متعجباً وبأى المواهب يبلغ الناس هذا المبلغ فاجابه الدكتور فان ديك . " يبلغه احقرهم بالاجتهاد فمن جد وجد " واستطرد من ذلك الى وجوب الاجتهاد في تسهيل احراز العلم على الطلاب . ووصف بعضهم يوماً علوهتمه وعجيب سرعته في انجاز عمله وصبره على المشاق واستشهد على ذلك بانة

كان يقوم في الصباح من بيروت الى صيدا في نحو اربع ساعات ثم يعود منها الى بيروت في مثل ذلك ويقضي بقية نهاره ومساءه في التطيب والتأليف فاستغربنا اخبر وسألناه عن ذلك فاجاب " اني كنت اركب حينئذ حصانا قويا سريعا العدو فلا يبطلني على الطريق " كأنه لا يريد ان يبق لي نفسو فضلا

ولهذا المناب واسناله ولجبه لاهل المشرق حتى اقتبس عوائدهم وتزييا بزيمهم زمانا في المأكل والملبس والمشرى نجد سكان بيروت الشام قد اجمعوا على حبه وولائه واعتبروا بكونه مصدر فضل وعلم وخير في بلادهم . واذا بحثت وجدت ان شبانهم وشاباتهم كانوا يحترمونه احتراماً يقرب من العبادة ولا عجب فانه مع تقدمه عنهم سناً وعلماً وعقلاً كان يجري في مقدمتهم ويسهل الصعاب امامهم ويقوي عزائمهم ويبقى في صدره محلاً رحباً لاعتبار ما يجيد من الامور للخصه بزمانهم وعدم احتقار آرائهم وامياهم وعاداتهم خلافاً لما يعهد في اكثر الذين يتقدمون سناً فانهم لا يرضون الا عما كان في زمانهم ولا يعتبرون الا عوائد عصرهم

واذا رمت ان تعرف اعتبار القوم له وحكمهم فيه فاسمع ما قالته جمعية الروم الارثوذكسين في تقريرها لسنة ١٨٨٥ وهو " ان الدكتور كرنيلوس فان ديك موازرها وناصرها وطبيب مرضاها ومرشد مستشفاها والمتصدق اليها وحسبه اجراً ونفراً وجوده على رغم الشيخوخة في مخدع التطيب والمرضى شاخصون اليه شغوص الملوسعين الى موسى ورمزه . هذا يستنبه قليلاً وذلك يسأله الدواء عجولاً وذلك يرجوه الشفاء عليلاً وهو يجبو هذا بالعتاء وذلك بالدواء وذلك بكلمة اشنى من دواء

والجمعية وان تكن لا تزيد الناس علماً به تجني اذا لم تعرف علماً في هذا المرض انه لا تنفج في الصبح عيناه الا على لائذ بجنايد . ولا ينالني في المساء بابه الا على منصرف مرضى او واقف في بابي . ولا ياوي في ليلته غرفته الا ليكب على مکتوباته وكتابه — حياة اجلات بطاعة الحدائث ونشاط الصبا ومرودة التنوة واقدام الشباب ومقدرة الكهولة وحكمة الشيخوخة — وهي في كل ادوارها ذكاء وفطنة . ودرس ومعرفة . وعلم وعمل . واستفادة وافادة . وعبادة لله . وحب للقريب . وخدمة للانسانية . نعم ولولا اشتهار فضلهم ونبههم والهمج عن ايراد ما يصلح لثلثه لقامت الجمعية الى مديحه قيامه الى نعمة البشرية . فهي تجزي بالذكر والشكر وتسال الله ان يسره نبا يسوه وان لا يسوه فيها يسره " . هذا وسأتي الكلام على شكر السوربين عمومًا له واكرامهم لاسم حيا وميتا